تفسير

سورة العصر

تفسير سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾

(١)

للسورة تأويلان عام وخاص

لا يخفى على من مارس كلام الخطباء الكرام أن الألفاظ إذا احتملت معنيين: عاما وخاصا، وكان المعنى الخاص مشيرا إلى ما يناسب موقع الكلام وسياقه ملمعا إلى قوم أو حال خاص، ثم كان المعنى العام محكما صادقا عاليا، تأولوا الكلام بتأويلين، ليناسب الكلام موضعه ويوسع نفعه، وليشير إلى أمور لا ينبغي التصريح بها، إما للإيجاز أو لوجوه أخر. وهذا أصل اعتمد عليه المفسرون والأصوليون. وبيناه في كتاب "أصول التأويل"[1].

فاعلم أن سورة والعصر من أكبر جوامع الكلام، ولها تأويل خاص، وعام وسيع. فنفسرها أولا حسب التأويل الخاص الذي له زيادة مناسبة بالسورة السابقة، وإن كان التأويل الأوسع أيضا غير قاطع ربط بينهما، كما ستعلم.

---

[1] من مؤلفاته التي لم يتيسر له إتمامها ، وقد نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٨٨هـ.

(٢)

مفهوم السورة إجمالا، وربطها بالتي قبلها

فاعلم أنه قد مر في السورة السابقة أن أهل النعم انهمكوا في طلب المال، فأفنوا فيه أعمارهم، وهذا هو الخسران العظيم، كما قال تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم (أي كدهم في جمع الوفر) في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.(أي إنهم يدأبون للتكاثر والتنافس، ويحسبونه حزما وعقلا، ويسفهون من يعمل للآخرة) أولئك الذين كفروا بآيات ربهم (الدالة على البعث والجزاء) ولقائه فحبطت أعمالهم (وهذا هو الخسران) فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا. ذلك جزاء هم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾ [سورة الكهف/١٠٣-١٠٦].

فهذا ذكر أهل النعيم المستهزئين بالرسل، وآيات الله، ولقائه.

وفي أول سورة "والعصر" بين خسران هؤلاء واضحا. ثم بين طريق الفلاح واقتناء الفوز العظيم والحظ الكامل من هذا العمر المستودع، لكي يتنافسوا فيما هو أحق به، وينتبهوا عن نوم اللهو والغفلة قبل الفوت والحسرة، كما بين لنا في قوله: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. (أي إلى الحياة الدنيا) لعلي أعمل صالحا فيما تركت (أي من الأموال) كلا (أي لن يرجعوا) إنها كلمة هو قائلها (أي ليسوا بفاعلين ما يعدون، ولا نائلين ما يتمنون) ومن ورائهم برزخ (أي سد قاطع بينهم وبين ما تركوا خلفهم) إلى يوم يبعثون. فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. (أي بعد البعث أيضا هم مقطوعون عن كل ما تركوا في الدنيا من أعوانهم إلا أعمالهم كما قال:) فمن ثقلت موازينه (أي بما

اقتنى من الخير الباقي) فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه (لما لم يكسبوا صالحا، وضيعوا أيامهم في أباطيل الدنيا وتطلب زخارفها) فأولئك الذين خسروا أنفسهم (فهذا هو الخسران الكلي) في جهنم خالدون﴾ [سورة المؤمنون/٩٩-١٠٣] فأي خلد كسبوا، ويا لمتاع خسروا.

ولا يخفى مما تلونا من الآيات أن خسران الإنسان مبني على كون الجزاء حقا، وكون الإنسان تحت قدرة ربه مسئولا عما فعل في مدة عمره فيما آتاه ربه من نعمه. فكان إثبات الجزاء أول الأمر ههنا. فلذلك جعل السورة دالة على لزوم الجزاء، ثم على الخسارة العظمى بإضاعة النعمة الكبرى من الله- وهي هذه الأيام التي لا عوض لها. ثم بين طريق الفوز والربح. وكل ذلك بغاية الإيجاز والإحكام، كما ستعرف في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى.

(٣)

دلالة كلمة العصر

فاعلم أن كلمة العصر اسم للزمان من جهة ذهابه ومروره، كما أن الدهر اسمه من حيث مجموعه. ولذلك يستعمل العصر كثيرا للأيام الخالية، كما قال امرؤ القيس:

وهل ينعمن من كان في العُصُر الخالي

---

[1] صدر البيت:

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي

الصحاح للجوهري (عصر) ولسان العرب (عصر، صرع). وفي الديوان: ٢٧ "يعمن"

وكما قال عبيد بن الأبرص:

فذاك عصر، وقد أراني تحملني نهدة سرحوب[1]

أي حينما كنت أراني، كما يظهر مما سبقه. وقال المتلمس:

عرفت لأصحاب النجائب جدة إذا عرفوا لي في العصور الأوائل[2]

وقال القطامي أيضا، ولم يكن من الجاهليين:

إني اهتديت لتسليم على دمن بالغمر، غيرهن الأعصر الأول[3]

ومن هنا جاز استعمال العصر في قول دريد بن الصمة حيث قال:

فإن لا تتركي عذلي سفاها تلمك عليه نفسك غير عصر[4]

أي من غير أن يمر بك كثير زمان.

ومن ههنا "الإعصار" للريح السريعة من جهة المرور والذهاب. و"عصر المائع": إمراره، و"العصر" لآخر النهار من جهة ذهاب النهار وانعصاره. ومنه: عنصر الشئ.

فكلمة العصر تذكرهم الأيام الخالية، وتوجههم من صفة الزمان إلى زواله وسرعة ذهابه. والأولى عبرة لهم بما جلب على الإنسان من حكم الله فيهم حسب أعمالهم، والثانية تحرضهم على التشمير لكسب ما ينفعهم من زمان أجلى صفته سرعة الزوال.

---

[1] ديوانه: ١٧ وجمهرة أشعار العرب: ٤٥٦.

[2] ديوانه: ٦٣.

[3] ديوانه: ٢٣ وجمهرة أشعار العرب: ٨٠٤.

[4] شعراء النصرانية: ٧٧٠.

وكان للعرب إلمام بطرف من هذين الأمرين، ونطق بهما ذووالبصائر منهم. قال المثقب العبدي:

إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت وفي تدبرها التبيان والعبر[1]

وقال قس بن ساعدة:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر[2]

وأراد بالبصائر: العبر، وأن الله هو المولى الحق.فإنه أنشد هذا الشعر بعد ما قال:

"تبا لأرباب الغفلة. من الأمم الخالية والقرون الماضية. يا معشر أياد! أين الآباء والأجداد؟ وأين المريض والعواد؟ وأين الفراعنة الشداد؟ أين من بنى وشيد، وزخرف ونجد، وغره المال والولد؟ أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا، وأطول منكم آجالا؟ طحنهم الثرى بكلكله، ومزقهم بتطاوله. فتلك عظامهم بالية. وبيوتهم خاوية. عمرتها الذئاب العاوية. كلا بل هو المعبود"[3].

وفي هذا الكلام مع حسنه نقص، وهو أنه ترك ذكر المجازاة. والقرآن كلما يذكر هذه الأمور ينبه على طرف العدل، كقوله تعالى: ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ [سورة النمل/٥٢].

وكان قس قد كاد أن يبصر هذا حيث قال: "بغى وطغى". ولكنه غفل عن أمر الجزاء، وقصر نظره على زوال النعم. والقرآن كثيرا ما

---

[1] المصدر السابق: ٤١٥.

[2] المصدر السابق: ٢١٣.

[3] المصدر السابق.

يستدل على الجزاء بما وقع على الأمم الخالية، وكذلك الصحف الأولى تذكر قصص الأمم استشهادا على لزوم الجزاء.

وأما ذكرهم الزمان بالزوال، وأنه لا معول عليه فكثير. وأحسنهم قولا عدى بن زيد، حيث قال:

أعاذل، ما يدريك أن منيتي
إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد ؟
أعاذل، إن الجهل من لذة الفتى
و إن المنايا للرجال بمرصد
كفى زاجرا للمرء أيام دهره
تروح له بالواعظات وتغتدى

فقرب من صريح الحكمة، ومع ذلك لم يعرج إلى أمر الجزاء وذكر الدار الآخرة.

(٤)
وجه القسم بالعصر

قد أشهد الله العصر تذكارا لما علموا من جريان حكم الله على الأمم الخالية حسبما أصلحوا أو أفسدوا في الأرض، ليعلموا أنهم لابد مجزيون يوما.

وكذلك أشهد الله على خسارة الإنسان بهذا الزمان الذي هو رأس بضاعته، وهو أسرع شئ زوالا، مع أن الإنسان معتمد عليه وغافل عن يوم

[1] جمهرة أشعار العرب: ٤٩٨-٤٩٩ .

انتهاء عمره ولقاء الله وجزاء أعماله. فإنما مثله كمن بضاعته الثلج، وهو غافل عن الاقتناء به ثمنا يبقى، بل يتلذذ برونقه الزائل وبرده الفاني حتى تنفد هذه البضاعة ويهجمه الأجل الموعود، فيعلم حينئذ خسرانه. وهذا تأويل الخسران جاء به القرآن مرارا، فمنه قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاء تهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون. وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ [سورة الأنعام/٣١-٣٢].

وهذا هو المراد من قول بعض العلماء كالقسطلاني وغيره في تفسير "والعصر": "أقسم بالدهر لاشتماله على العجائب والعبر".

ثم في مر الزمان بشارة وعون على الصبر، فإن بهذه المدة القليلة الفانية تستطيع أن تكسب كنزا باقيا وملكا لا يبلى. فكما أن الزمان يشقى به المنهمك في لذات هذه الحياة الدنيا، فكذلك يربح به العاقل، ويستعين به على الصبر والتقوى وكبح النفس في أيام قليلة. فهو يرى هذه الحياة كحلم نائم، وبرق خاطف، فهو متثبت على الحق الغائب الباقي، ومعرض عن الباطل المشهود الفاني.

فتبين لنا أن العصر ليس محض المثل والآية، بل هو دليل حق وحجة قاطعة على الجزاء وعلى الخسران، وفيه عون على الصبر والتقوى. فأحسن به مثلا عاليا جامعا لمعنى الخسران والفوز في غاية الصدق ونهاية الإيجاز.

(٥)
وجوب الخلافة والطاعة من التواصي بالحق والصبر

فبعد ما أعلن بخسران الإنسان عموما، هدى إلى طريق الرابحين

الذين اشتروا بهذا العمر الذاهب نجاحا وفلاحا، وهم أصحاب الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي. فجمع بهذه الصفات الثلاث جميع الخيرات.

ولقد جلت عظمة هذا القول عند من تفكر في إيجازه وسعة نطاقه، فإنه لم يترك من الخيرات شيئا. فإن الإيمان جماع العقائد، والعمل الصالح جماع الشرائع، والتواصي كمال فضل الله تعالى به هذه الأمة لا سيما الأئمة، لما أوجب عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر. وبذلك جمع شملهم وجعلهم إخوانا، وجنبهم عن التفرق والشقاق. ولم يزل يسمو أمر هذه الأمة متى قامت على هذه القاعدة، كما ترى في أوائل الخلافة، حتى انشقت عصاهم.

وقد فصل الله تعالى هذه الفريضة في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. (أي مذ عنون للإطاعة) واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [سورة آل عمران/١٠٢-١١٠]. فكان هذا فرضا عظيما على هذه الأمة، وفي ذلك آيات أخر.

ولا يخفى أن الله تعالى جعل ذمة الأمر والنهي على أمراء الأمة

وأئمتهم، كما تفهم من قوله: تعالى ﴿ولتكن منكم أمة﴾ [سورة آل عمران/١٠٤]. ولكنه تعالى جعل التواصي فرضا عاما.

فدلنا على أصل الأمر، وهو أن المؤمنين غير موفين بذمتهم حتى أن يعملوا الصالحات، ثم يساعد بعضهم بعضا في أداء الحقوق الواجبة عليهم، والاستقامة عندما تزل أقدامهم. ولا يستتب أداء الحقوق إلا بعد إقامة الخلافة والسياسة، ولا يتم التثبت عليه إلا بعد الإذعان لها. وليتضح هذا الأمر لابد أن نفسر معنى "الحق" و"الصبر".

(٦)

تفسير كلمتي الحق والصبر وربط ما بينهما ونظام السورة

فاعلم أن للحق عند العرب معنى عاما، ونذكره إذا فسرنا السورة بتأويلها العام، ومعنى خاصا مناسبا بربط السورة بما قبلها وبعدها: وهو المواساة بمن هو أهلها، كأن المرحمة كانت ذمة وحقا واجبا عليهم. قال ربيعة بن مقروم:

يهينون في الحق أموالهم   إذا اللزبات التحين المسيما [1]

أي ينحرون في القحط، ويطعمون الجياع.

وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري:

من أناس ليس من أخلاقهم   عاجل الفحش ولا سوء الجزع
عرف للحق ما نعيا به   عند مر الأمر، ما فينا خرع [2]

[1] المفضليات: ١٨٣ .

[2] المفضليات: ١٩٤ .

وقال لبيد:

فإن تقبلوا المعروف نصبر لحقكم   ولن يعدم المعروف خفا ومنسما [1]

وهذا كثير في كلامهم. فكأنه قيل: "وتواصوا بالمرحمة وتواصوا بالصبر". وكأن القرآن العظيم فسره هكذا حيث جاء: ﴿وتواصوا بالصبر. وتواصوا بالمرحمة﴾ [سورة البلد/١٧].

فانظر كيف خص بالذكر من الخيرات ما هو ملاكها. فإن المرحمة هي التي تؤلف قلوب الناس وتجعلهم كنفس واحدة كراما سمحاء. وقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة من تنافسهم في التكاثر، وذلك أصل دائهم، فحسمه بالتواصي للمرحمة، ثم أتبع ذلك بالتواصي بالصبر. فإن المرحمة لا تمكن إلا بأن يحتمل المرء أذى الناس، ويسامح لهم ويعفو عنهم، كما قال تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [سورة الشورى/٤٣].

وترى اعتناق المرحمة بالصبر، وإنهما صنوان بل ثنيا لحبل واحد في قوله تعالى في خاتمة آل عمران: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ [الآية/٢٠٠].

فأوثق عرى الوفاق، وجمع شمل الأمة بالصبر وروابط الاتحاد. ويشبه هذا ما قال تعالى: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ [سورة هود/١١].

فهدانا بهما من الخيرات لعلياها وملاكها.

وقد بينا في تفسير سورة الماعون وسورة الكوثر أن المحبة لله والخلق

---

[1] ديوانه: ١٧٩ .

أول ركن الإيمان، ويعبر عنها بالصلاة والزكاة أو ما يشبههما. فأجدر بهما أن يقارنا بالصبر، فترى في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [سورة البقرة/٤٥].

وقوله تعالى: ﴿و أمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ [سورة طه/١٣٢]. مقارنة الصبر بالصلاة.

واعلم أن الصبر عند العرب ليس من التذلل في شئ كما يصبر المضطهد العاجز، بل هو أصل القوة والعزم. وكثر في كلام العرب استعماله بهذا المعنى. قال حاتم الطائي:

وغمرة موت ليس فيها هوادة   يكون صدور المشرفي جسورها

صبرنا له في نهكها ومصابها   بأسيافنا حتى يبوخ سعيرها

قال الأصبغ:

يا ابن الجحاجحة المداره   والصابرين على المكاره [2]

وقال زهير بن أبي سلمى:

قودالجياد وأصهار الملوك وصبر   في مواطن لو كانوا بها سئموا [3]

وهذا كثير.

وفي القرآن بين معنى الصبر، حيث قال تعالى: ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

فذكر من مواطن الصبر: الفقر، والمرض، والحرب. وذلك أصول

---

[1] ديوانه: ٢٤٨ .

[2] الصحاح ، واللسان (دره) .

[3] ديوانه: ١١١ واللسان (صهر) .

الشدائد. وكذلك الصبر عند نزعات النفس على أذى الناس، كما مربك في قوله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر﴾ [سورة الشورى/٤٣].

فتبين لنا من مقارنة المرحمة والصبر أشرف حالة النفس من الجمع بين الدماثة والحماسة. وبيان ذلك في الفصل الثاني عشر. فما أجمع هذا الكلام وأوجزه في تعليم الأخلاق، كأنه مفتاح لكنوز البركات، ومصباح للساري على سبيل الخيرات، ودواء لأدواء القلب الشحيح، وكبح لنزغات النفس الجموح. فصارت هذه السورة واسطة بين سورتي التكاثر والهمزة اللتين في ذكر شناعة أهل الحرص والكبرياء المغترين بمتاع الدنيا السريع زوالها.

هذا، والآن نشرع في تفسير تأويل أوسع مما ذكرنا،فإن السورة تلمع إليه

(٧)
ابتداء التأويل الأوسع للسورة ووجوه مفصلة لكونها من جوامع الكلم

ليس من التكلف اعتناؤنا في تفسير القصار بتبيين سعة معناها، فإنه

١- لأي شيء جعلها الله سورة برأسها.

٢- وقد بينا في كتاب "تاريخ القرآن" [1] مصالح تعليم الأصول أولا، بقول جامع منطو على ما سيفصل.

٣- وقد هدانا الله تعالى إلى هذا الأصل، حيث قال: ﴿كتاب

[1] وهو مخطوط .

أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [سورة هود/١].

٤- ثم نرى في نفس عبارة القصار دلالة واضحة على كونها من جوامع الكلم ولوامع الحكم.

٥- وقد روينا عن السلف ما يوافق هذا الرأي. فقال الشافعي رحمه الله في سورة "والعصر": "لوتدبر الناس هذه السورة لوسعتهم" [1]

فالآن نوجهك إلى تدبرها، ونبين معاني الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي، والحق، والصبر، والنسب التي بين هؤلآء.

(٨)
معنى الإيمان، وأنه يزيد وينقص، ويحيط بالعلم والعمل كليهما

فاعلم أن الإيمان أصله الأمن. والإيمان يستعمل لغة على وجوه: فنقول آمنه: أي أعطاه أمنا، كقوله تعالى: ﴿وآمنهم من خوف﴾ [سورة قريش/٤].

وآمن له: أي صدقه، واعتمد عليه. وآمن به: أيقن به. وكل هذا جاء في القرآن. ومن أسمائه تعالى: المؤمن، لما أنه معطي الأمن لعبده اللائذ بجنابه.

ثم هو اصطلاح ديني قديم. في العبرانية: (أمن) معناه: الصدق والاعتماد. والمتعدى منه: إيمان وتصديق، وتثبت. ومنه: (آمين) كلمة تصديق. وهو الإيقان الصحيح مع لوازمه من الخشية، والتوكل، والإذعان

[1] تفسير ابن كثير ٤: ٥٥٠ .

لحكمه. فالمؤمن: من آمن بالله وبآلائه وآياته، وأذعن لأحكامه، وسلم له بكليته، فملئ بالرضا لكل ما قضى.

فكما أن الإيمان للعقل هدى ونور، فكذلك هو للقلب صلاح وطهور. فيفيض على الرأي والإرادة معا، ويحيط بالعلوم والأعمال جميعا. فالمؤمن في اصطلاح القرآن: هو العابد لله، الذي حقق عبوديته بالإيقان بآياته، والإذعان لأحكامه محبة ورضى.

ثم اعلم أن من سنة الله تعالى رفع النفوس إلى معارج العلى حسب سعيها، فيرقيها في منازل قربها من ربها. ولما كانت للنفس قدمان: من جهة العقل والرأي، ومن جهة القلب والإرادة، صارت كل خطوة من العلم والعمل سببا لزيادة قربها من هداها وتقواها، كما قال تعالى: ﴿والذين اهتدوا (أي عملوا بما علموا) زادهم هدى (أي علما) وآتاهم تقواهم﴾ [سورة محمد/١٧]. (أي صحة إرادتهم. فإن التقوى هي منبع الأعمال الصالحة).

فكل علم نافع وعمل صالح يجلب هدى وتقوى، ويصير سببا لزيادة علم وعمل بنعمة من الله تعالى. وعلى ما قلنا شهادات من الآيات.

فمن الشاهد قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ [سورة الحجرات/١٤].

أي لم يتم إيمانكم، بأنه لما يصل من رأيكم إلى إرادتكم، ومن قولكم إلى فعلكم. ومثله ما قال تعالى: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ [سورة المجادلة/٢٢].

بعد ما ذكر مودتهم، فدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب، ويبعث المحبة. ومنه قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ [سورة البقرة/١٦٥].

ومن الشاهد قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ [سورة النساء/٦٥].

أي من لم يسلم كلية نفسه و إرادته في أعماله تسليما لأمر الله وحكمه لم يصر مؤمنا، لأن الإيمان اسم لمجموع لم يأت هو إلا بجزء منه.

ومنه قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا﴾ [سورة الأنفال/٢-٤].

بهذا عرفنا الله تعالى المؤمنين، فذكر من أوصافهم: خشية قلوبهم بذكر الله، وزيادة إيمانهم بسماع آياته، وتوكلهم على ربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق، وأن أولئك هم المؤمنون بالحق.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ [سورة الحجرات/١٥].

ومنه قوله تعالى: ﴿أ فمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾ [سورة السجدة/١٨]. انظر كيف جعل المؤمن ضدا للفاسق، وصرح بأنهم لا يستوون.

فبعد هذا لا يبهم عليك ما جاء في القرآن من ذكر العمل الصالح بعد الإيمان. فإنما هو تفصيل وتوضيح من قسم عطف الخاص على العام. وهذا مثل ما ترى في القرآن كثيرا من عطف الطاعة للرسول على الطاعة لله. فإن هناك عطف التفصيل بذكر البعض بعد الكل، أو بذكر الخاص

بعد العام. فإن بعض الكلم لبطون معناه ربما يخفى بعض أطرافه، فيتبع بما يوضحه. وضرورة الإيضاح في أمر الإيمان ظاهرة، فإن محله سر القلب ومحض العقل، بحيث أن المرء لا يخدع غيره فقط بل ربما هو يخادع نفسه فيظنه مؤمنا وليس بمؤمن. فصار للإيمان شاهدان: قول، وعمل. والقول ربما يكذب، فوجب التنبيه على أن المؤمن بلسانه لا يكون مؤمنا حقا إلا بأن يصدقه عمله. فجعل الله العمل محكّا للإيمان الذي أصله أمر باطن.

ومن ههنا جاء قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ [سورة النساء/١٣٦].

أي الذين آمنوا بالقول آمنوا بالعمل.

ومثله قوله تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [سورة العنكبوت/٢-٣].

فحمل كلمة (وعملوا الصالحات) وكل ما يذكر من الأعمال الخاصة بعد كلمة (آمنوا) على تفصيل الكلمة أحسن تأويلا. ولكن لا عليك إن جعلته مقابلا لـ (آمنوا)، فالإيمان له معنى الإيقان أيضا، كما سنذكره في الفصل الآتي. وحينئذ يكون مجموع قوله: (آمنوا وعملوا الصالحات) تعريف المؤمن حقا

وجملة الكلام أن الإيمان–

١– حالة نفسانية، وعلاقة روحانية.

٢– وسلطانه على العقائد كسلطانه على الأعمال.

٣– وأنه يزيد بالعلوم كما أنه يزيد بالأعمال.

٤– وأن له ركنين: العلم والعمل، فينخرم بهدم واحد منهما.

فإن من علم وأيقن بأن الله تعالى رب العالمين وبسائر أمور الدين، وبغي على العصيان، لا يكون في شيء من الإيمان المعتبر عند الله تعالى– كابليس الذي أيقن به، وليس بمؤمن– فلا وزن ليقينه، بل هو حجة عليه فيزيده بُعداً من الله وسخطا منه. أو كفرعون وآله الذين أيقنوا، ولم يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾ [سورة النمل/١٣-١٤].

والوجه ظاهر، فإن العلم والإرادة أمران، ولا تلازم بينهما وتفصيل بحث العلم في تفسير السورة السابقة.

(٩)

للإيمان أيضا معنى خاص، وهو الإيقان، ومعنى سياسي وتوجيه قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله

ولكن للإيمان معنى أخص مما ذكرنا، وهو الإيقان. ويستعمله القرآن بصيغة الفعل، وبذكر متعلقه، كقوله تعالى: ﴿آمن (أي أيقن) الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون (أي بالمعنى الأول) كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا (أي بصميم قلوبهم) سمعنا وأطعنا﴾ [سورة البقرة/٢٨٥].

ومن هذا الاستعمال خيل إلى بعض العقول أن الإيقان هو كل الإيمان المعتبر عند الله، وأنه الجزم المحض، وإذن كيف يزيد بالعمل، أم كيف يكون العمل ركنا له ؟ فإن الجزم والعمل متباينان. وخيل إلى هذه الطائفة أن هذا الرأي الذي رآه الإمام أبو حنيفة رحمه الله، فأبرموا ما زعموا، وتكلفوا في تأويل آيات واضحة وأمر بين.

وأما أنا فالظاهر عندي أن الإمام رحمه الله نظر إلى المسئلة نظر الفقيه والقاضي والأمير في جريان الشرائع من الوراثة والنكاح، والخراج، والجزية، وسائر الأحكام السياسية. فالمؤمن- بهذا الاعتبار- كل من أقر بأنه من حزب المؤمنين، وشارك المسلمين في شعارهم، وكان على ما هم عليه فيما ظهر من أحوالهم. فلا فرق بين الصادق والكاذب، والبر والفاجر منهم. وفي هذا الإيمان يتساوى بعضهم ببعض، ولا زيادة ولا نقصان فيه. فإن السياسة لا تبحث عما بين المرء وربه. وإنما يكشف عنه يوم القيامة. وفي هذا ما جاء في سورة الحديد من قوله تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم. يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا (بالمعنى الأول للإيمان، كما بيناه) انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا (فلما فعلوا، وفرقوا من المؤمنين) فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم (أي في الدنيا كأحدكم) قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم و ارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا (أي بصريح الكفر) مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾ [الآيات/١٢-١٥]

فعلمنا أن طائفة من الذين في الدنيا مع المؤمنين يفرقون عنهم يوم القيامة، ويجمعون مع الذين كفروا. ولا يمكن هذا إلا بتسوية الأمير السائس بين المؤمنين والذين ليسوا على صفاتهم الأصلية، ولكنهم أظهروا الإيمان للناس.

فأبو حنيفة رحمه الله تعالى لم يرد في هذا البحث من الإيمان معناه

الخاص، وهو الإيقان، وإنما هو أراد "الإقرار"، و"الإظهار". فإن المسئلة كانت: هل الإيمان قول وعمل، أم قول فقط ؟ ولم يكن النزاع في أنه علم وعمل. والظاهر أن القاضي إذا أخذ الإيمان بمعنى القول، أو ما ينوب منابه- وهو صائب في هذا- فلا يجعله محلا للزيادة والنقصان. وبذلك بين أنه لم يرد من الإيمان إلا مناط أحكام القضاء، فتصريح القرآن بزيادة الإيمان خارج عن بحثه. والقرآن ناطق بكل لسان، والعقل حاكم بصريح البيان بأن الإيقان والعمل كليهما يتفاوتان، ويصيران سببا لجلب زائد إليهما، كما فصلناه في الفصل السابق.

(١٠)

العمل الصالح ما به صلاح الخلائق و تكميلها

قوله تعالى: ﴿وعملوا الصالحات﴾ قول جامع لأشتات الأعمال الحسنة، وهذا ظاهر. ولكن للفظ دلالة على حكمة عظيمة: وهي أن الحسنات لما سماها الله صالحات علم الإنسان بذلك أن فيها صلاح حاله، وقوام أمره في معاشه و معاده، وأفراده وجماعته، وجسمه وعقله وقلبه. فالعمل الصالح ما به حياة الإنسان ونماؤه حسبما أودع الله في فطرته واستعداد خلقته. فبه يتم غاية وجوده حتى ينتهي إلى كماله، وهو المراد بفطرة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [سورة التين/٤].

وهو المراد من العبادة، كما قال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [سورة الذاريات/٥٦].

أي لطاعتي. وبها صلاح نفسه وسائر الخلق. لأن الإنسان جزء من العالم

بأسره، فالصالح من أعماله ما يجري حسب حكمة أودعها الله في خلائقه، وتدبير قدره في كلية نظامه. فإن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثا، ولا لهوا. وكل ما ترى في العالم من التشاكس والتصادم، حتى يزهق بعضه بعضا، فما هو إلا مدارج الترقي والنمو من الكون، وتحول شئ إلى شئ، وحال إلى حال.

وقد علمنا القرآن ارتقاءنا بالعمل الصالح، وأن العالم بأسره صائر إلى حكمة بتربية من ربه الذي يحق الحق ويبطل الباطل، فقال تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه (فهذا عروج الإنسان بحسن عمله الصالح له، ولكلية ما هو الحق المقصود من الخلق) والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ [سورة فاطر/١٠] لأن السيئات خلاف الحق، فما يمكرون لإبطاله لا ينجح، بل يبطله الله تعالى لما أراد من الخلق غاية وحكمة، وسماها حقا وصرح ذلك في آيات، فمنها قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾ [سورة الأنبياء/١٦-١٨].

ومن ههنا علمنا لماذا جعل الله تعالى الصالحين وارثين للأرض، فإن المفسد في الأرض يجري إلى خلاف غاية الخلق. والصالحون هم الذين يعملون الصالحات، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ [سورة العنكبوت/٩]

أي في زمرة الصلحاء، وهم الأنبياء، والصديقون، والشهداء.

وكثر في القرآن، والصحف الأولى ذكر إهلاك المفسدين، وبركة الصالحين.

ومنها قوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون. إن في هذا لبلاغا (أي بلاغ بشرى) لقوم عابدين﴾ [سورة الأنبياء/١٠٥-١٠٦].

أي طائعين لأحكامه، وهي جماع الصلاح، كما مر. فالفاسق عدو نفسه وسائر الخلق. فإنه لا تهمه إلا عاجلة أمره، فيكره الشرائع، ويتعدى الحدود، ولا يعلم أن نفعه منوط بنفع الجميع. وأما الصالحون فهم ملح الأرض، ورئاب الفتق، وأساة الخلق يحسنون ويألمون لا لأهل زمانهم فقط، بل لمن يأتون من بعد. فتوسع نطاق مواساتهم كتوسع الخلائق، وبهذا استحقوا وراثة العالم، وخلافة ربهم. فما يطلبون إلا صلاحا عاما، وهو الحق، والقسط، والحكمة، والرحمة.

(١١)

الحق هو المطلوب والغاية لعروجنا

فاعلم أن الحق في الأصل هو الموجود المستقر. فله وجوه، أو درجات. فهو:

- الواقع في الكون.
- والثابت في العقل.
- والواجب في الأخلاق إما لك وإما عليك.

واستعمله القرآن بهذه المعاني كلها، كما قال تعالى: ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ [سورة ص/٦٤].

أي ذلك واقع لا محالة. وكما قال تعالى: ﴿ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ [سورة يونس/٣٠].

أي إنه لهو المولى بالحقيقة أبدا. وكما قال تعالى: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ [سورة الذاريات/١٩].

أي كالدَّين الواجب عليهم.

وأما المعنى الخاص الذي ذكرناه في الفصل السادس- وهو المواساة بالضعفاء- فمتفرع من معناه العام، كأن أجلّ الحقوق عند العرب هذه. فهي لازمة على المستطيع، حاصلة لذوى الحاجة. وكأنها ثابتة عند العقل، ومعلومة للناس- ولذلك سموا الإحسان معروفا- ومعمولة بينهم كالقانون الثابت المستقر. فالحق بمعنى المواساة كأنه قد أشرب من تلك العروق كلها.

فإذا أخذت الحق بالمعنى العام الوسيع كان محبوبا للعقل والقلب معا، واشتمل العلم والعمل جميعا ؛ وكان ضدا للباطل، والجور، والفساد.

هذا، والآن ننظر إلى حقيقة صفة الحق والصبر، ليتضح النسبة الوسيعة التي بينهما، ويتبين لك نظم هذه السورة حسب وسعة معناها وفسحة مغناها، كجنة عرضها السماوات والأرض.

(١٢)

توضيح الحق والصبر والنسبة التي بينهما

فاعلم أن ملاك النجاة إصلاح القوى العقلية والأخلاقية، وأن للعقل والقلب كليهما جانبين من اللين والشدة، والدماثة والحماسة.

فأما جانب الدماثة من العقل فهو أن يخضع للحق كلما وأينما لاح له، ومن القلب فهو أن يتحنن إلى الخالق والمخلوق. فالعقل يؤمن بالحق: وهو الله تعالى، وصفاته، وآياته. والقلب يحس بعبوديته وأصله، فيتحنن إلى

مولاه الحق، ويحس بما يجب عليه من المواساة إلى جميع الخلق.

فأما جانب الحماسة، فمن العقل أن يصبر على الغيب الحق وينبذ الباطل المشهود، ومن القلب أن يستقيم على المكاره عند الشدائد، ويقوى على العفو عند القدرة. فكما أن الحق يتعلق بالعقل والقلب، فكذلك الصبر يتعلق بهما.

وجملة القول أن الحق يفتح أبواب الخيرات كلها، والصبر يسد عورات الشرور بأجمعها. فالحق هو المحبوب، والصبر هو الالتزام به. وبمثل هذا جاء قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا (أي بالصدق) ربنا الله (وهذا قول جامع للإيقان والطاعة، فإن من أقر بربوبيته صار موقنا مطيعا) ثم استقاموا﴾ [سورة الأحقاف/١٣].(أي تقبلوا الحق، ثم صبروا عليه).

ولا يخفى أنه ليس بعد الفوز بالسعادة الكبرى إلا الدوام عليها. فجمع الخير كله في كلمتين: الحق والصبر، وتبين لك وجه الربط بينهما.

وليس أن الصبر ينتهي بعد الفوز بجميع الخيرات، بل بعد كل خير ينبغي التمسك به لكي يعطى ما فوقه. فظهر أن الصبر عون للخير، ولذلك صار من أول شرط للارتقاء. ألا ترى، كيف أمر النبيون بالصبر أولا، وكيف كان أمر موسى وصاحبه عليهما السلام ؟ فإنه لم يطلب أولا من موسى عليه السلام إلا الصبر، فامتحنه به. ومزيد بيان منزلة الصبر في الفصل الخامس عشر. وإنما أردنا ههنا التنبيه على أن الحق والصبر كخطوتين في سيرك.

والآن تمهد لك أن تعلم أن ههنا سلسلة تفصيل وتفريع. فكما أن "الإيمان" هو الأصل والأم، وذكر العمل الصالح تفصيل لطرف ظاهر من الإيمان كما بيناه، فكذلك لما كان "الحق" هو محبوب العقل والقلب، وبه

كما لهما وصلاحهما كان "الصبر" نتيجة هذه المحبة. وبقدر المحبة للشيء يكون الالتزام به، والذب عنه، والغضب له، والغيرة عليه. وهذا هو أصل النقمة من الله الرحمن. هل تراك تحب أحدا ولا تغضب إن يقهر أو يهان ؟ ألا ترى غيرة المرأة على ولدها وفلذة كبدها، وتشجع الأمهات للذب عن أبنائها، والأقوام لحماية ذمارها، حتى أن الحمامة المسكينة تضربك بجناحها إن مددت يدا إلى بيضتها وفرخها. فعلمنا مما تقدم أن الصبر يتفرع من نفس المحبة للحق.

ثم إن الحق جله غيب كما مر، فلزمك الصبر له، كما قال تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ [سورة الروم/٦٠].

فلتكن هذه جهات الربط بين الحق والصبر بين عينيك.

(١٣)

بيان النسبة بين العمل الصالح والتواصي

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالحق. وتواصوا بالصبر﴾ يدل على أنهم أهل الحق والصبر، ويتواصون بهما بعد العمل. وإنما لم يصرح بهذا، لأن الإيمان ثم عمل الصالحات قد اشتمل عليه، ولأن نفس التواصي بالشيء من غير العمل به بادي القبح. وهذا موقع المدح، فلا يصار إليه.

فقد تبين لنا أن التواصي يتفرع من عمل الصالحات، كما أن عمل الصالحات يتفرع من الإيمان. فإن من زين إليه الحق، وعمل به، وصبر له ازداد به علما، وله حبا، وعليه غضبا ؛ وأفرغ جهده لحمايته. فلا يمكنه أن يرى الحق مخذولا ولا مضاعا، والباطل عائثا في عباد الله. فمثله كمثل بطل شجاع يحرض إخوانه على أن يحاموا عن الحقيقة، ويصبروا على البأس.

وهذا التحريض ليس إلا جزءا من حمايته. فكذلك ههنا التواصي جزء من العمل الصالح، وذكره الله تعالى على سبيل التفصيل والتوضيح.

وقد مر أن العمل الصالح هو حفاظ السلم والتمدن، فيلزمه التواصي بما هو الحق، وبالاستقامة عليه. وهذا مثل ما قال: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ [سورة المائدة/٢].

فالبر هو الحق، والتقوى هي الصبر: أي تثبيت النفس على الخير في مواقع الزلة.

(١٤)

فريضة النصح على الأمة، وحرية القول لها

مما تقدم من تفسير "العمل الصالح"، و"الحق"، و"الصبر"، و"التواصي" اتضح من غير شبهة ما أودع الله في هذه السورة من فرائض السياسة، والتعاون، والمرابطة في التعايش، وإبطال الخمول والاعتزال عن أمور الأمة العمومية. ولما أن السورة خصت بذكر عوازم الأمور، فذكر التواصي فيها تنبيه عظيم على ما قلنا.

وبما أوجب علينا من التواصي أعطانا حرية القول. فالأمة مع إذعانها لصاحب الأمر مأمور بإظهار الحق والنصح، ولذلك سماهم "شهداء". وترى الخلفاء الراشدين كانوا يخضعون لكلمة الحق حتى من العجائز. ولذلك أمر الله النبي ﷺ بالمشاورة لكي يشجعهم على قول الحق. فكانوا يقولون ما يرون، ولا يرون بأسا بإظهار ما لاح لهم، ولو كان غير ما لاح للنبي ﷺ. ذلك ليجعلها سنة معمولة ومن أسوته الحسنة.

ثم ليعرف أن حرية القول ليست في شئ من إثارة الفتنة، فإنما

الواجب هو التعاون على البر والتقوى. فإن لم يسمع منك فلا سبيل لك إلى الفساد، حتى يبلغ السيل زباه وتجتمع الكلمة على الخلع. وبسط الكلام تحت آية: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ [سورة الأعراف/٥٦]. فليكفنا ههنا إلماع إليه.

(١٥)

زيادة إيضاح لمنزلة الحق والصبر في الدين وتدبير الله في خلقه

بعد ما سرحت النظر فيما تقدم من الفصول السابقة، وتبينت غورها تراءى لك "الحق" و"الصبر" كالجبلين العظيمين الشامخين، عليهما أوتاد الشريعة العليا ودعائم ملكوت الله.

وقد مر أنه تعالى لم يخلق السماوات والأرض إلا بالحق، أي القسط والحكمة. فقال تعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض﴾ [سورة المؤمنون/٧١].

فاعلم أنه تعالى لا يعطي أمة الخلافة في الأرض، ونعمة الشريعة والنبوة، إلا بأن يجعلهم قائمين بالقسط، ومذعنين للحق، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء (أي شهداء بالقسط) لله ولو على أنفسكم﴾ [سورة النساء/١٣٥]

والقسط هو الحق، ويتعلق بالعلم والعمل معا، كما قال تعالى: ﴿وأولو العلم قائما بالقسط﴾[١] [سورة آل عمران/١٨].

١ قال الفراهي: انظر كيف عظم الله شأن التوحيد والقيام بالقسط حيث نسبهما إلى نفسه وأشرك العباد فيهما . حواشي القرآن للفراهي .

وقال تعالى: ﴿فاحكم بينهم بالقسط﴾ [سورة المائدة/٤٢] و﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ [سورة الأعراف/٢٩].و ﴿الذين يأمرون بالقسط﴾ [سورة آل عمران/٢١]

ثم قال تعالى: ﴿يهدون بالحق (أي القسط) وبه يعدلون﴾ [سورة الأعراف/١٥٩و١٨١] وقال: ﴿قال رب احكم بالحق﴾ [سورة الأنبياء/١١٢] وقال: ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾ [سورة سبأ/٢٦] وقال: ﴿فاحكم بيننا بالحق﴾ [سورة ص/٢٢] وقال: ﴿والله يقضي بالحق﴾ [سورة غافر/٢٠].

فألزمنا القيام بالحق، فإنه أقام عليه ملكوته، كما قال: ﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق (أي القسط) ولا تتبع الهوى (فإنه فساد، وزيغ عن سبيل الحق) فيضلك عن سبيل الله (أي منهج ملكوت الله الذي أنت خليفته) إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب. (فإن ذلك يوم جزاء الظالمين) وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا (فكيف نرضى لخليفتي أن يترك سبيلي الحق) ذلك (أي كون السماء والأرض غير قائمة بالحق) ظن الذين كفروا﴾ [سورة ص/٢٦-٢٧] (أي بربوبية الله تعالى).

وأما الصبر فما من أمة اصطفاها الله لحمل كتابه إلا وقد امتحنها بالصبر، كما أن الباني يلتمس أساسا صلبا لجسر عظيم، أو قصر رفيع. فيكون أول أمر الأمة امتحانا و بلاءا، حتى إذا صبروا بعد الزلازل والشدائد استحقوا أمانة ربهم. فأنشأهم أمة جديدة، وأيدهم، فأظهرهم

على من ناوأهم، كما قال: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾ [سورة محمد/٣١]

وقال: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء (أي أئمة العدل) والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [سورة آل عمران/١٤٠-١٤٢].

وبين في قصة بني إسرائيل أن رفعتهم وضعتهم دارت على قطب الصبر. والحكمة فيه أن الله يفيض على العباد نعمه حسب أعمالهم، كما قال: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ [سورة الحج/٤٠].

فهو مع الصابرين، فألزمهم الصبر دواما، وجعله عهدا بينه وبينهم، فقال تعالى: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ [سورة البقرة/١٥٣، و سورة الأنفال/٤٦]. وقال: ﴿والله يحب الصابرين﴾ [سورة آل عمران/١٤٦].وقال: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ [سورة السجدة/٢٤].

واذكر قصص الرسل عليهم السلام فإنهم لم ينصروا إلا بعد مدة صبروا فيها، ولذلك قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ [سورة الأحقاف/٣٥]. أي بالعذاب والغلبة عليهم.

ثم هذا هو الأصل الذي يجري عليه تدبير الله تعالى في خلقه. فإن الله تعالى قدر الأمور وجعل لها آجالا، ليتم كل شئ خلقه ويخرج ما أودعه من القوى، فلا يعجل بالعذاب على الظالمين، كما قال تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن

يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا﴾ [سورة فاطر/٤٥].

أي حينئذ يقضي عليهم بالحق. فهذا هو الصبر المعبر عنه بالحلم في تدبير الله خلقه. ولذلك كثر في القرآن أمره لرسوله أن يصبر. فمنه قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فاصبر صبرا جميلا. إنهم يرونه بعيدا. ونراه قريبا﴾ [سورة المعارج/١-٧].

فإن رجعت بصرك في تاريخ الأمم الخالية تبينت أمرين: الأول جريان قضاء الله على سنة العدل، وصيرورة الأمور في تقلبها إلى الحق، كما قال: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ [سورة الأنبياء/١٨].

والثاني حلمه بعباده، وإمهاله إياهم، ليبلوهم فيما آتاهم، كما قال تعالى: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا (فيتركهم) كذلك نجزي القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾ [سورة يونس/١٣-١٤].

والحلم كالصبر.

ومما قلنا تبين أن الصبر هو أساس للحق، فلو عجل الله بالعذاب أبطل الحكمة التي يبرزها، والحق الذي يخرجه من بواطن خلقه، كما قال: ﴿الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض﴾ [سورة النمل/٢٥].

أي يبرز ما بطن في فطرتها من المصالح. ومثل هذا ما بيناه في (٦)

و(١٢)[1] من الملازمة بين الحق والصبر، بيد أن ههنا ذكرنا سعة هاتين الكلمتين

فمع كون الحق شديد البطش، والحلم كثير الصفح إنهما متلازمان. وإذ أمرنا الله تعالى بهما أمرنا بما فيه صلاح بواطن أخلاقنا، وإصلاح ما بيننا، واستحقاق وراثة الأرض والجنة، والسلوك على سنة الله، وإكمال العبودية والخلافة لربنا الذي يحب القسط والعفو، وبهما يدبر الخلق، ويكمل العالمين. وبسطنا هذا البحث في كتاب "ملكوت الله"[2]

(١٦)
ربط السورة بالتي قبلها والتي بعدها

لا نحتاج إلى كبير بيان لإيضاح موقع السورة ونظامها. فإن السورة السابقة- كما علمت- في ذكر أهل النعيم المنهمكين في التنافس لزخارف الدنيا، وذكر غفلتهم وسوء عاقبتهم. والسورة التالية في تصوير عقاب هذه الطائفة، وذلتها، وهوانها على رغم حبها للترف، والعزة، والفخار. فوضع هذه السورة بينهما بحيث ينبهم على خيبة عملهم وضلال رأيهم. وفي ضمن هذا عرف لنا خصال المؤمن، وسبيل الفلاح. وكثيرا ما ترى في القرآن يجمع بين المتقابلين كذكر البر والفاجر، والجنة والنار، فهكذا ههنا. لم يذكر في السورة السابقة ولا في اللاحقة إلا أهل النار، فأكمل بهذه السورة أسلوبا عاما في القرآن.

---

[1] يشير إلي رقم الفصلين

[2] نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩١هـ .

ونظام هذه السورة بالتي قبلها كنظام قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون. وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾ [سورة المنافقون/٩-١٠]. فتأمل في معنى هاتين الآيتين، والتمس المطابقة التي بينهما وبين سورة "التكاثر" وسورة "والعصر".

هذا، ولا يحيط بعلمه وكلماته إلا هو.

تفسير سورة العصر

فهرس مطالب الفصول